نهاية شاعر

للأستاذ علي العماري

كانت ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة في السنة الثالثة والعشرين بعد الهجرة ليلة فاصلة بين عهدين من عهود الإسلام : عهد الأمن والسلامة والهدوء ، وعهد الغدر والعدوان والفتنة ؛ فقد تنفس صبحها عن حادث جليل ، وجناية مروعة اهتزت لها أركان الدولة العربية ، وأحدثت في الإسلام الحدث ، وأي نازلة أروع من قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ !

في هذه الليلة ولد لرجل من رجالات قريش طفل أسماه (عمر) وكناه (أبا الخطاب) . ذاك أمير العدل والحزم والحكمة ، وهذا أمير اللهو والغزل والشعر ، لذلك كان أهل التقوى إذا تذاكروا — فيما بعد — شئون هذه الليلة جرت على ألسنتهم هذه الكلمة (أي حق رفع ، وأي باطل وضع)[1] .

نشأ (أبو الخطاب) كما ينشأ لداته من فتيان قريش المترفين يسحب ذيول الصبا ، ويجري ملء عنانه في مراتع الهوى والجمال . غني واسع ، وجاه عريض ، وعز باذخ ، وقد أعانه على ذلك وسامة نحب ، وظرف يعشق ، ولسان ساحر ، وقلب شاعر ، وإنما تركه سراة قريش ، وأعفى عنه شيوخها ، يمتع في مجالي شبابه ، ويفتن في ذكر فنونه وفتونه ، ويتبع فتياتها ، ويشبب بهن (رعاية لأسرته ، وتخيراً بشاعريته ، وترفقاً لتوبته)[1] .

وربما كانوا يرجون أن يرفع في الشعر قدرهم ، ويعلي فيه سناهم ، ولقد نالوا من ذلك ما أرادوا ، فإن العرب كانت تقر لقريش بالفضل في كل شيء إلا الشعر ، حتى نبغ ابن أبي ربيعة فأقرت لها بالشعر أيضاً .

وكأنما أغرته كل هذه الأسباب مجتمعة ، فاندفع لا يلوي على شيء ، وسدر في غوايته لا يبالي أحداً ، وكان عبثه لا يكاد يتعدى النساء ، فهو يواعدهن ويتحدث إليهن ويخدعهن ، ثم يودع ذلك كله في شعر قصصي رقيق ، وأسلوب ابن عذب (وإن له لموقعاً في القلوب ، ومدخلا لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو)[2] . (فلشعر ابن أبي ربيعة لوطة بالقلب ، وعلق بالنفس ، ودرك للحاجة ، وما عصى الله بشعر قط أكثر مما عصى بشعر ابن أبي ربيعة[3]) . وقد جح به الصبا والغزل ، فاتخذ أيام الحج مواسم لصبواته ، ومشاعر البيت الحرام مرابع لهواه :

ليت ذا الدهر كان حتماً علينا كل يومين حجة واعتمارا

وهكذا كان ينظر هو وأترابه لأيام الحج :

تلبث حولا كاملا كله لا نلتقي إلا على منهج
في الحج إن حجت وماذا مني وأهله إن هي لم تحجج
ما منيّ وما أهله إن لم يلق صاحبته ؟

ولم أر كالتجمير منظر ناظر ولا كليالي الحج أفلتن ذاهوى
وكم مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

نعم كان شعره السحر ، يستميل به القلوب ، ويستنزل به المتأبي ، ويتأنس الشارد ، وينزل الأعصم من فنده ، وكأنما انفجر له — وحده — ينبوع الشعر الغزل ، فورد منه المنهل الصافي النمير . وليس هناك شك في أن سروات الناس ، بل وعامتهم أحسوا بالشر يتمثل في شعره ، ورأوا رءوس الشياطين تطل من قوافيه ، فخافوا على فتياتهم أن يتصباهن هذا العبث ، ومنعوا أن تدخل دفاتره البيوت ، أو يسمر به مع ربات الخدور ، وقالوا : « ما دخل على العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة » . وقال هشام بن عروة : « لا تروا فتياتكم شعر عمر لا يتورطن في الزنا تورطاً » .

(١) الأغاني حـ ١ ص ٧١

فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جواباً ، فأطرقت مفكراً ، وبحالي وحالها معتبراً ؛ فقالا : ما عندك فيما سألناك جواب ... أنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك ، وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي ؛ فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أفتيتهما ، وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه . فبقيت مرتبكا ، وبحالتهما وحالي معتبراً ؛ وإني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي . فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس ، وانخفض لها جناح العجب ؛ توفيقاً منحته ورشداً أوتيته . وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما .

محمد كرد علي

(١) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ١٠٣
(٢) الأغاني ص ٧٨ (٣) زهر الآداب حـ ١ ص ٢٨٥

غير أن هذا الشاعر ينفصل من كل ما ينسبه إلى نفسه ، ويزعم أنه يقول وقلبه مطمئن بالإيمان ، ويذيع فى الناس .

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه ... لا خطر لى منه إلا لذة النظر

وما نلت منها محرماً غير أننا ... كلانا من الثوب المورد لابس

نجيبين نقضى اللهو فى غير مأثم ... وإن رغمت منا الكاشحين المماطس

ويساير بعض فتيان قريش ، وقد تقدمت به السن فيقول له : يا ابن أخى قد سمعتنى أقول فى شعرى : قلت لها وقالت لى ، وكل مملوك لى حر إن كنت كشفت عن فرج حرام قط ، فيقول الفتى : قلت وأنا متشكك فى يمينه فسألت عن رقيقه فقيل لى : أما فى الحوك فله سبعون سوى غيرهم .

ويعرض فيجزع أخوه الحارث جزعاً شديداً ، فيقول له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بى ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة قط

وهكذا يحاول أن يدفع عن نفسه ما وقر فى أذهان الناس مما أخذوه من شعره ، فيصدقه قوم ، ويؤكدون عفته وطهارته ، فيذكر بعض الرواة أن عمر عاش ثمانين سنة فتك منها أربعين سنة ، ونسك أربعين سنة . ويروى صاحب الأغانى عن الزبير بن بكار قال : « لم يذهب على أحد من الرواة أن عمر كان عفيفاً ، يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد » . ويكذبه آخرون ، ويجابهونه بهذا التكذيب ، ويعتمدون فيما يعتمدون على اعترافه على نفسه فى بعض الأحايين ، وتشك طائفة ثالثة فى مبلغ قوله من الصدق حتى معاصروه أنفسهم لا يطمئنون إلى شىء من هذا .

ولاشك أنه بذلت محاولات كثيرة لرده عن غوايته ، وصرفه عن حياة اللهو والعبث . ويبدو أن شيئاً منها لم يفلح ، وأن الأمر كان كما يقول عبد الملك بن مروان : « أما أن قريشاً تعلم أنك أطولها صبوة ، وأبطؤها توبة »(١)

وفى بعض الروايات أنه تاب على حدود الأربعين ، ونذر لئن قال بيتاً ليعتقن به رقبة ، ثم انصرف إلى بيته مهموماً مكتئباً ، وربما مكث على هذه التوبة أياماً ، لكن الحنين عاوده ، والشوق إلى الشعر استبد به ، فأطرق وفكر ، فأدركت جارية ما بنفسه من أسف على توبته فقالت له إن لك لأمراً ، فاندفع يقول شعراً ، فكان تسعة أبيات ، فأعتق تسعة من عبيده ، وفى هذا الشعر يقول :

تقول وليدتى لما رأتنى ... طربت وكنت قد أقصرت حينا

أراك اليوم قد أحدثت شوقاً ... وهاج لك الهوى داء دفينا

وكنت زعمت أنك ذو عزاء ... إذا ما شئت فارقت القرينا

فقلت شكا إلى أخ محب ... كبعض زماننا إذ تعلمينا

وذو القلب المصاب وإن تعزى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

ولعل أخاه الحارث — وكان ديناً عفيفاً لم تلد أمة خيراً منه كما يقول عبد الملك — كان أكثر الناس وعظاً له ، وربما حاول غير مرة أن يكبح جماحه ، ويصرفه عن صويحباته ، وربما بذل فى ذلك غاية وسعه ، وأفرغ له كل جهده ، ولكنه لم يفلح أيضاً ؛ وعاد يقول : « ما أرى عمر ينتفع بوعظنا » أغراه بالمال ، وبعث به إلى اليمن حيث أخواله ، رجاة أن يثوب إلى رشده ، ويقلع عن أباطيله إذا فارق هذه البسمات الوضاء ، وترك تلك الوجوه الصباح التى ألفها وألفته ، ولكن الحنين يراجعه ، والشوق يعاوده ، إلى صاحبته الثريا فيقول :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا ... إذا حللنا بسيف البحر من عدن

لا داركم دارنا يا وهب أن نزحت ... نواك عنا ولا أوطانكم وطنى

فلست أملك إلا أن أقول إذا ... ذكرت لا يبعدنك الله ياسكنى

بل ما نسيت ببطن الخيف موقفها ... وموقفى وكلانا ثم ذو شجن

وقولها للثريا يوم ذى خشب ... والدمع منها على الخدين ذو سنن

بالله قولى له فى غير معتبة ... ماذا أردت بطول المكث فى يمن

إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها ... فما أخذت بترك الحج من ثمن

وهكذا يعتذر بغير العذر ، ويتكئ على غير عصاه ، وإلا فما لهذا الفاتك والحج يتعلل به ، ويتباكى على فوته ؟ !!

ومهما يكن من أمره فإن طول نظرى فيما أحاط بأخريات حياته يقضى على أنه نسك ، ولكنه لم ينسك استجابة لوعظ واعظ ، ولا خضوعاً لإرادة مريد ، وإنما رأى السنين نقلت على كاهله ، والسن تخونته ، وغزلان الحجاز تنفر منه ، بعد أن انطفأت جمرة شبابه ، وخمد مشبوب عاطفته ، فماذا يصنع ؟ هربت منه اللذات ، وتنكرت له الصبابات ، فليمل إلى جنب الله ، وليستجب لداعى التوبة ، وهو يرى الموت على حبل ذراعه ، وينظر قبره قد حفر ، وإنها لفرصة قد انتهزها ، لما تولى عمر ابن عبد العزيز الخلافة بعث إليه فلما جاءه قال له : هيه :

(فلم أركا لتجمير منظر ناظر) وذكر له البيتين اللذين ذكرناهما آنفاً ، ثم قال : فإذا لم يفلت الناس منك فى هذه الأيام ، فمتى

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة .